اللسانيَّات الأمريكيَّة ولسانيَّات سوسير
بحثٌ في قضايا التلَّقي وإشكالاته

American linguistics and Saussurean linguistics
Research into the issues of reception and its problems

د. خالد خليل هادي
جامعة بغداد– كليـة التربيـة ابن رشد للعلوم الإنسانية– قسم اللغة العربيَّة

Dr. Khaled Khalil Hadi
University of Baghdad
College of Education - Ibn Rushd for Human Sciences
Department of Arabic Language

khaled.hadi@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

الكلمات المفتاحية: دي سوسير، بلومفيلد، استقلال اللسانيَّات، اللغات الهندو أمريكيَّة

Keywords: De Saussure, Bloomfield, independence of linguistics, Indo-American languages

الملخص

اشتمل نصُّ محاضرات اللسانيِّ السوسيريِّ فرديناند دي سوسير(١٨٥٧م–١٩١٣م)، بوصفه نصًّا تأسيسيًّا على الكثير من الأفكار اللسانيَّة المُهمَّة، التي لم يكن للدرس اللسانيِّ عهدٌ بها، وأحدثت تلكم الأفكارُ قطيعةً معرفيَّةً مع الكثير من الأفكار اللسانيَّة التي كانت سائدةً قبله. وقد حظي هذا النصُّ بالكثير من الدراسات التي حاولت الوقوف عنده ومُساءَلة أفكاره في مختلف بقاع العالم.

ويسعى البحث إلى الوقوف على الكيفيَّة التي تُلُقي فيها نصُّ المحاضرات في القارة الأمريكيَّة، وتحديدًا عند اللسانيِّ السلوكيِّ ليونارد بلومفيلد. إنَّ غايةَ البحث هي بسطُ الأفكار السوسيريَّة، وبيان الكيفيَّة التي أعاد بها بلومفيلد صياغة هذه الأفكار، بغية تشكيل خطابه اللسانيِّ القائم على مرجعيَّةٍ سلوكيَّةٍ ومنطقيَّة.

Abstract

The text of the lectures of the Swiss linguist Ferdinand de Saussure (1857 AD - 1913 AD), as a foundational text, included many important linguistic ideas that the linguistic study had no knowledge of, and these ideas created a cognitive break with many of the linguistic ideas that had prevailed before it. This text has received many studies that have tried to examine it and question its ideas in various parts of the world.

The research seeks to find out how lecture texts are delivered on the American continent, specifically according to the behavioral linguist Leonard Bloomfield. The aim of the research is to explain the Saussurean ideas, and to show how Bloomfield reformulated these ideas, in order to form his linguistic discourse based on a behavioral and logical reference.

المقدِّمة

اتَّجهت الدراسات اللسانيَّة بعد مجيء اللساني السويسريّ فرديناند دي سوسير (١٨٥٧م-١٩١٣م) وجهةً أخرى، إذ حمل اليها منهجًا جديدًا في البحث والدراسة، وسعى الى صياغة الحدود المنهجيَّة للدراسة اللسانيَّة، فقد عمد في كتابه"محاضرات في اللسانيات العامة" إلى أنْ يجعل من اللسانيَّات علمًا مستقلًا، يتوافر على الاستقلاليَّة والصلابة التي نجدها في العلوم الصرفة، وقد استطاع فعلاً أنْ يحقِّق للدرس اللساني استقلاله، وأنْ يُحدث في إطار المنهج الذي ارتضاه قطيعةً معرفيَّةً مع البحث اللساني الذي كان مهيمنًا قبله (ينظر: اللسانيات والدلالة ٧٧، ومدخل الى علم النص ومجالات تطبيقه ٤٠)، وكان بذلك مؤسِّسًا لعصرٍ بأكمله من الدرس اللسانيّ، إذ وجَّهت أفكار دي سوسير((البحث اللسانيَّ نحو تحليل اللغة بما هي نسقٌ من الوحدات والعلامات، ونسقٌ من العلاقات المركبيَّة والاستبداليَّة المُشتغلة على مستويات تراتبيَّة، وهذا ما كانت تعاني منه لسانيَّات ما قبل سوسير. ولم يكن بدٌّ من أنْ يترك هذا التوجُّه بصماتٍ على البحث اللسانيِّ، وذلك أنَّ التيار البنيويَّ الذي أرسى سوسير دعائمه يشمل أغلب المدارس اللسانيَّة المعاصرة، مدرسة براغ (نيوكولاي تروبتزكوي، رومان ياكبسون...) ومدرسة كوبنهاجن(لوي يلمسليف) أو المدرسة الوظيفية(مارتيني، ياكوبسون...) والبنيويَّة الأمريكيَّة(بلومفيلد) والمدرسة التوليديَّة التحويليَّة(نوم تشومسكي...).إلاّ أنَّ هذا التأثير متفاوتٌ الوقع من اتجاه الى آخر، فإذا كانت غالبيَّة الاتجاهات قد ظلَّت الى هذا الحدِّ أو ذاك أمينةً للمرتكزات النظريَّة والمنهجيَّة للسوسيريَّة مع ما في ذلك من تطوير أو تصحيح لبعض المفاهيم فإنَّ الاتجاه التوليديَّ التحويلي قد غيَّر بشكلٍ كبيرٍ تصوُّر اللسانيات بالشكل الذي تعرضه دروس في اللسانيَّات العامَّة)).(مدخل للسانيات سوسير ١٦٦، وينظر: اتجاهات البحث اللساني ٢١١.)

لقد بثَّ دي سوسير في محاضراته جملةً من المبادئ اللسانيَّة العامَّة التي أصبحت في ما بعد ركائزَ أساسيَّةً في البحث اللسانيِّ، واتخذت تلكم المبادئ شكل ثنائيَّات متقابلة، مثل ثنائيَّة اللغة والكلام، والدال والمدلول، والسياقيَّ والإيحائيّ، والآنيّ والتاريخيّ أوالتزامن والتعاقب...الخ، فغالبًا ما يُتَّخذ الحديث عن دي سوسير شكل قائمة من المقابلات بين أزواج من المفاهيم، حتى انَّه عُدَّ مجرد عرض تلك المقابلات ملخصًا لنظريته، وممثلاً لها، وقد أشار ياكوبسن الى أنَّ دي سوسير هو أهمُّ مَنْ كشف القناع عن التناقضات اللغويَّة.(ينظر: مدخل للسانيات سوسير ١٦٦، وعلم اللغة العام ٩(مقدمة المُراجِع)، والثنائيات اللسانية: ٤٩) ولم تكن هذه الثنائيات من قبيل الجمع المجرَّد بين مفاهيم متفرِّقة، بل كان دي سوسير واعيًا بها كلَّ الوعي، وقد اهتدى اليها بعد تأمُّلٍ عميقٍ وتصوُّرٍ شاملٍ للظاهرة اللسانيَّة، فهو يرى أنَّ

البحث عن هذه الثنائيَّات وتفسيرها يدخلان ضمن المهام المنوطة بعهدة اللساني.(ينظر: سوسير والألسنية، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية ٢٤)

لقد أصبح المحيط الأكاديميُّ الناطق بالفرنسية لما يقرب من قرن من الزمان هدفًا لإصدارات تختصُّ بكتاب دي سوسير، حيث أُحتفِيَ به احتفاء كبيرًا، لأنَّه مثَّل انعكاسًا دقيقًا لفكر سوسير في قضايا اللغة والسيميولوجيا، وعليه تُرجم في وقتٍ مبكرٍ إلى عددٍ من لغات العالم، وكانت اليابانيَّة أولى اللغات المُترجَم إليها، ثم تبعتها ترجماتٌ كوريَّة وإيطاليَّة وروسيَّة، وتأخَّرت الترجمة الانكليزيَّة إلى العام ١٩٥٩م، وهي ترجمةٌ قام بها الأميركيُّ ريد باسكن، ثم تبعتها في العام ١٩٨٣م ترجمةٌ انكليزيَّةٌ أخرى، صاغها روي هاريس الأستاذ في جامعة أكسفورد، وهو المعني كثيرًا بتراث سوسير اللسانيّ.

في العام ٢٠٠٢ أُكتشف كنزٌ ثمينٌ من المخطوطات، أسهم في تغيير الكثير من وجهات النظر بخصوص الكتاب ومؤلِّفه، الذي لم يكتب منه سطرًا واحدًا، إذ عكست تلكم المخطوطات شخصيَّة دي سوسير بصورة أكثر عمقًا وتعقيدًا، بدرجة أكبر من صورته التي عكستها النسخة الأولى التي صدرت في العام ١٩١٦.

ويعدُّ اللساني البريطاني روي هاريس واحدًا من أبرز الكتَّاب المعنيين بتراث سوسير، فقد أصدر في العام ١٩٨٣ ترجمته الانكليزيَّة لنص المحاضرات، وفي العام ٢٠٠٢ أصدر المؤلِّف نفسه كتابه الذي قدَّم فيه مشروعًا مهمًّا يهدف إلى تقييم وتقويم تلقي أفكار سوسير في العالم الأكاديميّ الغربيَّ في القرن العشرين، وهو كتاب(سوسير ومؤولوه)، الذي ترجمه الدكتور أحمد شاكر الكلابيّ، وصدرت ترجمته العربيَّة في العام٢٠٢١.

وسيسعى البحث إلى متابعة المنهج الذي اختطَّه روي هاريس والوقوف على تلقِّي نصِّ المحاضراتِ في اللسانيَّات الأمريكيَّة، وتحديدًا مع بلومفيلد، بغية الوقوف على الطريقة التي حضر فيها المتنُ السوسيريُّ في القارَّة الأمريكيَّة.

اللسانيَّات الأمريكيَّة..الظروف والنشأة:

لعلَّ من نافلة القول التذكير بالسياق التاريخيّ والمعرفيّ الذي تطوَّر في ظله البحثُ اللسانيُّ في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، فقد تطوَّر بصورةٍ مستقلَّةٍ عن المدارس اللسانيَّة الأوروبيَّة، وغير متَّصلةٍ اتصالاً مباشرًا بطروحات فرديناند دي سوسير اللسانيَّة (ينظر: مناهج علم اللغة ٢٠١، ومدخل في اللسانيات ١٠٧ (صالح الكشو)) ، وإذا كانت لسانيَّات سوسير في أوروبا قد نشأت بوصفها ردَّ فعلٍ على المدرسة التاريخيَّة فإنَّ اللسانيَّات الوصفيَّة الأمريكيَّة قد صدرت أساسًا عن مشاغلَ عمليَّةٍ متصلة شديد الاتصال بعلم الأجناس(الأنثروبولوجيا)، وتتمثَّل هذه المشاغل في إيجاد منهج لدراسة ووصف أكبر عددٍ ممكنٍ من اللغات الهندو –

أمريكية الرائجة في أمريكا الشماليَّة؛ لأنَّ معظم هذه اللغات لم يكن يتكلَّمها إلاّ عددٌ قليلٌ من الناس، إذ لم تكن مدوَّنةً، وكانت على وشك الاندثار، فما لم تُسجَّل وتوصف قبل أنْ يحدث ذلك، يصبح الوصول إليها ودراستها أمرًا مستحيلًا إلى الأبد، فضلًا عن أنَّها لغاتٌ لا يُمكن دراستها باعتماد المقولات النحويَّة الخاصَّة باللغات الأوروبيَّة(ينظر: جومسكي ٣٣، والبنيوية في اللسانيات ١١٧،٩٩) ، وتحديدًا اللغويات الفيلولوجيَّة، لأنَّ الأخيرة تستلزم وجود لغات ذات بعد تاريخيّ مدوَّن، ومرَّت بحقب تاريخيَّة متعددة، قبل أن تصل إلى الصورة التي هي عليها الآن، في حين تفتقر لغات الهنود الحمر إلى الجانب التدوينيِّ، وهو أمرٌ يجعل الاعتماد على الدراسات الفيلولوجيَّة بمنهجيها التاريخي والمقارن أمرًا غير ذي فائدة،((فاللسانيّون الأمريكيون يرفضون أن يكونوا تبعاً للنموذج الأوروبي(التاريخي والمقارن)؛ إذ لكلٍّ منهما اهتماماته على صعيد العلوم الإنسانيَّة في الأقلِّ، وبحسب نظرهم فاللغة ليست كعلم الفيزياء تنعدم الجغرافيا والهويَّات أمام منظومة قوانينه. ودليلهم على عدم صلابتها أنَّهم واجهوا اضطراباتٍ بليغةً في ترويض النموذج الأوروبيِّ وتطبيقه على اللغات الهندو–أمريكيَّة . وأخذت الصعوبات تتراكم حتى أدركوا أنَّ النموذج الأوروبيَّ بات متأزّمًا، فاللغة في أوروبا لغة حضارة مكتوبة، وفي أمريكا لغة مجتمعات بسيطة منطوقة، وعمر الدراسات اللغويَّة فيها يتجاوز ألفي سنة، وفي أمريكا بالكاد في طفولة البحث، واللغة السنسكريتيَّة التي صاغت اللسانيَّاتُ التاريخيّة أدواتِها من معطيات متنها تلتقي بعائلة اللغات الأوروبيَّة، وهي نفسها لا ترتبط من قريب أو بعيد باللغات الهندو أمريكيَّة، هذه المفارقات جمعاء تنتج مشكلاتٍ في ازدياد وتكرار دائمين، مهَّدت إلى ثورة أو قطيعة أو حلٍّ، وهذه المفاهيم الثلاثة تحققت مع نموذج جديد ذي هوية أمريكية)) (الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة ٢٢٤.).

لقد أسهمت في تطوير الدرس اللسانيِّ الأمريكيّ جهود عددٍ من اللسانيين، يقف في مقدمتهم فرانز بوواز ١٨٥٨م–١٩٤٢م، وإدوارد سابير ١٨٨٤م–١٩٣٩م، وليونارد بلومفيلد ١٨٨٧م–١٩٤٩م، ونعوم تشومسكي ١٩١٨، فقد كانت أعمال بوواز بدايةً حقيقيَّةً لمدرسةٍ لسانيَّةٍ أمريكيَّة، كان لها أثرٌ بارزٌ في رسم ملامح الدرس اللسانيِّ الأمريكيِّ، ويعدُّ الدارسون سابير الممثِّل التقليديَّ للسانيَّات الأمريكيَّة، فضلًا عن أنَّه رائد البنيويَّة فيها (ينظر: اتجاهات البحث اللساني ٢٧٦–٢٧٧، والبنيوية في اللسانيات ٩٩–١٠٠، ومدخل في اللسانيات ١١٠ (صالح الكشو)).

مرجعيَّات اللسانيَّات الأمريكيَّة:

اعتمدت اللسانيَّات الأوروبيَّة، والسوسيريَّة تحديدًا مرجعيَّةً معرفيَّةً تعتمد مبادئ الوضعيَّة المنطقيَّة، بغية التأسيس لعلميَّتها، وحاولت صياغة خطابٍ لسانيٍّ يقوم على مبدأ(**استقلاليَّة اللسانيَّات**)، في حين نجد أنَّ اللسانيَّات الأمريكيَّة قد اتخذت من الانثروبولوجيا مرجعيَّةً معرفيةً اعتمدتها في التأسيس لدرسٍ لسانيٍّ مستقلٍّ، معنى ذلك أنَّ اللسانيَّات الأمريكيَّة لم تكن مستقلَّةً، وإنَّما كانت لسانيَّاتها منتميةً، إذ كان الدرس اللسانيُّ في أمريكا يقع ضمن أقسام الأنثربولوجيا، في حين تُدرس اللغة في أوروبا ضمن أقسام اللسانيَّات (ينظر: مدارس اللسانيَّات التسابق والتطور ٥١) ، ولا شكَّ في أنَّ اختلاف المرجعيَّات سيقود حتمًا إلى الاختلاف في النتائج، فاللسانيَّات الأوروبيَّة تنظيريةً، في حين اللسانيات الأمريكيَّة المعتمدة على الأنثروبولوجيا تطبيقيَّة ميدانيَّة، ذلك أنَّ التطبيق والميدان علامةٌ فارقةٌ في البحث الأنثروبولوجيّ،((وهذا مسلكٌ باتجاه الواقعيَّة العلميَّة، إذ أمريكا قارة ما برحت تُستكشَف على الصُعُد المعرفيَّة كافة، واللغات المحليَّة حينذاك تتجاوز الألف لغة، ولم يُسبَق أن دُرِست دراساتٍ وافيةً، بل إنَّ معظمها لم يُدرس، ثم إنَّها–اللغات– دخلت في صراعٍ غير متكافئ مع لغة المُستعمِر الانجليزيّ، وأخذت تستسلم بسرعةٍ هائلةٍ، تمامًا مثلما فعل سكَّانها أمام هذا المدِّ الجارف من الانجليزيَّة، وأمام هذه الظروف وأخرى كثيرة غيرها رأى فرانز بواس وتلامذته أنَّ عليهم أن يعجِّلوا في دراسة ما بقي منها، والطريق الأصلح لذلك واقعياً، هو الوصف الآنيُّ والتصنيفُ اللغويُّ عبر التدوين والتسجيل الصوتيّ، أي أرشفة اللغة وتصنيفها من غير فرضيَّات تبتغي تكوين رؤية كليَّة عن الألسن عامة، كما هي الحال في اللسانيَّات العامَّة واللسانيّات التاريخيَّة إلى حدٍّ ما؛ لذا حكمت الظروف صيرورة المنهج اللسانيِّ الأمريكيِّ)) (اللسانيَّات البنيويَّة منهجيَّات واتجاهات ٣٥٩، وينظر: الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٢٢٨.).

كذلك رفض إدوارد سابير صراحةً مبدأ (استقلاليَّة اللسانيَّات) لصالح انفتاح النسق اللسانيِّ على بقيَّة العلوم، ففي مؤتمر اللسانيِّين الذي عُقِد في العام ١٩٢٨، وبعد هيمنة النموذج السوسيريّ على مجتمع العلم، وأخذ عددٌ من المدارس باستلهامه، مثل حلقة براغ، رأى سابير أنَّ البحث اللسانيَّ يجب أن يغادر فكرة الاستقلاليَّة لصالح الانفتاح على المشكلات الاجتماعيَّة والنفسيَّة والأنثروبولوجيَّة التي تتداخل مع حقل اللغة بشكل أو بآخر، لأنَّه من الصعوبة بمكان((على لسانيٍّ حديثٍ أن يحدِّد نفسه بمادة بحثه التقليديَّة. وما لم يكن هذا اللسانيُّ ضيِّق الأفق نوعًا ما، فإنَّه لن يستطيع إلا أن يشترك، جزئيًّا أم كليًّا في الاهتمامات المتبادلة التي تربط اللسانيَّات بالأنثروبولوجيا، وتاريخ الثقافة، وعلم الاجتماع وعلم النفس، والفلسفة، وعلى نحو أبعد الفيزياء، والفسلجة)) (الاتجاهات الأساسيَّة في علم اللغة ٤٤، وينظر: الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٢٢٨).

بلومفيلد والمدرسة السلوكيَّة:

تأسيسًا على مبدأ(**استقلال اللسانيَّات**) الذي ترسَّخ في أمريكا، حاول اللسانيُّ الأمريكيُّ ليونارد بلومفيلد الاعتماد على هذا المبدأ في صياغة مبادئ مدرسته، فقد كان بلومفيلد ذا مكانة خاصَّة في ميدان البحث اللسانيّ الأمريكيّ، وهو يقع في أمريكا موقع دي سوسير في أوروبا، من حيث الأهمية، والدقَّة، وعمق الأثر (ينظر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد ٢٥٠)، غير أنَّ مرجعيته لم تكن مرجعيَّةً أنثروبولوجيَّةً، وإنَّما كانت مرجعيَّةً نفسيَّةً، إذ تأثَّر بنظريَّات المدرسة السلوكيَّة النفسيَّة التي سادت مبادئها الولايات المتحدة مطلع عشرينيَّات القرن الماضي (ينظر: موجز تاريخ علم اللغة ٣٣٤، واتجاهات البحث اللساني ٢٧٨) ، والتي تزعَّمها عالم النفس جون برورداس واطسون.

لقد آمن بلومفيلد بالاتجاه التجريبيِّ والتحليل الوضعيّ المنطقي للغة، الذي ساد في عشرينيَّات القرن الماضي، فضلًا عن ظهور علم النفس السلوكيُّ، فقد عُرِفَ عن السلوكيِّين نقدهم الحادُّ للعقلانيِّين، وحطُّهم من شأن كلِّ الدراسات((التي لا تقتصر في منهجها على السلوك الخارجيِّ، وترى أنَّ كلَّ المحاولات التي تصف أو تفسِّر ما يجري في دماغ الإنسان أو في عقله إنَّما هي تكهُّناتٌ تنقصها الموضوعيَّة)) (مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٢٤)، فهم يرفضون أنْ يكون الاستبطانُ وسيلةً إلى الوصول الى بياناتٍ صحيحةٍ في الدراسات النفسيَّة، ويؤكِّدون أنَّ ما يُمكن ملاحظته ملاحظةً موضوعيَّةً فحسب يمكن أنْ يكون موضوع بحوث علميَّة((وما يكون قابلًا للملاحظة هو سلوك البشر فقط، وليس قدراتهم العقليَّة والأفكار والخبرات الشخصيَّة...)) (مناهج علم اللغة ٢٠٦)، ونلاحظ هنا أنَّ السلوكيِّين ومعهم بلومفيلد يؤمنون بالمُدرَك الملاحَظ، على حساب الذهنيّ العقليّ غير الملاحَظ، لأنَّه عصيٌّ على الضبط، وهو عين ما تؤمن به الوضعيَّة المنطقيَّة التي ترى أنَّ سبيل العلم الوحيد هو ما يكون خاضعًا للمشاهدة والتجريب.

تقوم النظريَّة السلوكيَّة على مبدأ المثير والاستجابة، ويُطلَق المثير على الأحداث التي تسبق الحدث الكلاميّ، وتكون سببًا في كلام المتكلِّم، أمَّا الأحداث التي تلي الكلام فتُدعى الاستجابة (ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٢٥).

وبعد قبول بلومفيلد بالمفاهيم الأساسيَّة للنظريَّة السلوكيَّة، سعى الى تطبيق آراء السلوكيِّين على اللغة (ينظر: البنيوية في اللسانيات ١٠٠، واتجاهات البحث اللساني ٢٧٨، والمعنى وظلال المعنى ١١٤)، وشرع ببثِّ تلكم الآراء في كتابه(اللغة) الصادر في لندن عام ١٩٣٣م، واتَّبع في كتابه منهجًا أمبريقيًّا((يركِّز بشكلٍ مدروسٍ على تلك الجوانب من اللغة التي يُمكن أنْ تُعالَج على نحوٍ تامٍّ بناء على الأُسس الأمبريقيَّة كما فهمها هو)) (موجز تاريخ علم اللغة ٣٤١، وينظر: جومسكي ٣٧) ، وقد أدَّاه منهجُه هذا الى التركيز على الجانب

الفيزيائي من اللغة، مثل الصوت والصرف والتركيب؛ لأنَّ هذه المستويات هي الأكثر ملاءمةً للفحص الموضوعيّ المنضبِط، فهي جوانبُ مُلاحَظَةٌ ومُدرَكَةٌ بشكلٍ عامّ (ينظر: اتجاهات البحث اللساني ٢٧٨، وموجز تاريخ علم اللغة ٣٤١). ويمتدح جفري سامسون هذا الجانب من السلوكيَّة، ويصفه بأنَّه جانبٌ جيدٌ، ولم يكن مصدرَ ضررٍ للسانيَّات، ((ففي علم الأصوات الوظيفي وعلم الصرف وعلم النحو كان الجانب الجيَّد من السلوكيَّة هو المطلوب، ففي كلِّ هذه المجالات كان لسلوكيَّة بلومفيلد تأثيرٌ حميدٌ، جعل من اللسانيِّين يُطهِّرون تحليلاتهم من الاعتماد على الحدس، أو الحِكَم الشعبية المتوارثة، وبذلك أصبحت التحليلات علميَّةً أصيلةً...)) (مدارس اللسانيات ٦٤، وينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٢٧).

لقد أحدث بلومفيلد قطيعةً جزئيَّةً مع لسانيَّات سوسير الأوروبيَّة وسابير الأمريكيَّة، لأنَّ الأولى نظرت إلى اللغة بوصفها ظاهرةً اجتماعيَّة، ومن الصعوبة بمكان ضبط الاجتماعيَّ آليًّا وتجريبيًّا، والحال نفسه مع سابير، الذي نظر إلى اللغة نظرةً ممزوجةً بالثقافة وهذا لا يُمكن حدُّه وصفيًّا، ولا يمكن ضبطه بالتجربة.

لكنَّه من جهة أخرى يتفق مع سوسير من ناحية ضرورة أن تكون الدراسة اللغويَّة دراسةً علميَّة، ويتَّفق مع سابير في جزئيَّة إمكانيَّة دراسة اللغة لغير ذاتها (اللسانيَّات المنتمية/المختلطة)، من طريق الاعتماد على السلوكيَّة التجريبيَّة التي تضمن له النسق العلميَّ، وتساعده في التخلي عن القبليَّات وقضايا الحدس والفكر العصيَّة على التمثيل الواضح (الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٢١٨-٢١٩).

مراجعات بلومفيلد لفرضيات سوسير:

يُشير باشلار إلى أنَّ العامل الأساسي في تطوُّر العلم هو وجود الأخطاء، لذلك يرى أنَّ تاريخ العلم هو تأريخ أخطاء، وأنَّ العلم يجب أن يهتمَّ بكشف جوانب الخطأ والنقص والفشل في البحث العلميِّ، بصورة أكبر من اهتمامه بالكشف عن الحقيقة، التي سعى الفلاسفة إلى الحصول عليه (ينظر: الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٧٨)، يقول باشلار في هذا الصدد:((إنَّ العقليَّة العلميَّة هي أساسًا تصحيحٌ للمعرفة، وتوسيعٌ لحدود المعرفة، إنَّها تُحاكم ماضيها التاريخي بإدانتها إياه، تركيبها هو الوعيُ بأخطائها التأريخيَّة، من الناحية العلميَّة نحن نفكِّر فيما هو صحيحٌ كتعديلٍ لخطأ طويل، نفكِّر في التجربة كتصحيح للخطأ البدائيّ الشائع)) (ابستمولوجيا، نصوص مختارة في ابستمولوجيا العلوم١٥٠، وينظر: الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٧٩).

وإذا كان العلم هو تصحيحًا لخطأ بحسب الفهم الباشلاريّ، فإنَّ تأريخ اللسانيَّات هو تأريخ أخطاء وإساءة في القراءة، وأكثر ما تحصل هذه الإساءة مع المؤلِّفين الذين لم يكتبوا

كتبهم بأيديهم، وإنَّما كتبها آخرون بعد وفاتهم، وهذه الإساءة أكثر ما تبرز مع سوسير في محاضراته (ينظر: الأيديولوجيا واللغة ٩٧)، على نحو ما سيتضح لنا ذلك.

سبق أن نوَّه البحثُ بالأهميَّة الكبيرة التي حظي بها بلومفيلد في اللسانيَّات الأمريكيَّة، فهو الشخصية الأكثر تأثيرًا في النصف الأول من القرن الماضي.

ويجدر القول هنا أنَّه لم تظهر أية مراجعة نقدية لما كتبه دي سوسير في الضفة الأخرى من الأطلسي، باستثناء ما قدَّمه بلومفيلد من مراجعةٍ نقديَّة لنص المحاضرات في مقال نشره في(مجلة اللغة الحديثة)، في العام ١٩٢٣، فضلًا عن مراجعةٍ متأخرةٍ قام بها رولن ويلز في العام ١٩٤٧، في مقال نشره في مجلة(الكلمة)، على الرغم من أنَّ ياكبسون قد ألقى محاضراتٍ عن سوسير في نيويورك إبان الحرب، غير أنَّ محاضراته لم تظهر مطبوعةً حتى وقتٍ متأخِّرٍ جدًا، فقد اختفى ذكر سوسير عن الكتب المنهجيَّة في أمريكا، حتى أواخر الخمسينيَّات، فعلى سبيل التمثيل لا يجد الدارس ذكرًا لصاحب المحاضرات في فهرس كتاب هوكيت(دروس في اللسانيَّات) الصادر في العام ١٩٥٨، على الرغم من وجود أسماء لغويين أوربيين، من أمثال ياكبسون ويسبيرسن ومارتينيه وميبه (ينظر: سوسير ومؤولوه ١٢٨).

إنَّ المراجعة النقديَّة الأولى لنصِّ المحاضرات في القارة الأمريكيَّة قام بها بلومفيلد، في مقال نشره في العام ١٩٢٣، وأكَّد فيه حقيقةً معرفيَّةً، قوامها أنَّ سوسير في نظريته اللسانيَّة((أعطانا القاعدة النظريَّة لعلم الكلام البشري)) (الأيديولوجيا واللغة ١٠٤) ، لكنه مع ذلك التنويه حاول أن يغمط حقَّ سوسير الريادي ودوره التأسيسيّ في عددٍ من الآراء، من طريق تأكيده على أنَّ معظم ما قاله سوسير كان موجودًا في الأجواء الأكاديميَّة لمدَّةٍ طويلةٍ من الزمن، ويكمن إنجاز سوسير الوحيد–بحسب بلومفيلد– في أنَّه تمكن من ترتيب الأفكار التي كانت موجودةً أصلًا هنا وهناك، فما كان يُعبَّر عنها بشكل شذراتٍ تمكَّن سوسير من تنظيمه ومنهجته، ويتضح هذا الأمر من خلال كلام بلومفيلد على مبدأين مهمين عرض لهما سوسير في محاضراته، وهما: الاعتباطيَّة والخطيَّة، وهما كما نعلم صفتا الإشارة اللغويَّة، ويمثِّل مبدأ الاعتباطية حجر الزاوية في النظريَّة السوسيريَّة، إذ يؤكِّد دي سوسير على أنَّ العلاقة التي تربط الدال بالمدلول علاقةٌ اعتباطيَّة (ينظر: علم اللغة العام ٨٦–٨٧، والبنيوية في اللسانيات ٢٠٤)، ويُقصد بالاعتباطية((أنَّها لا ترتبط بدافع...لأنَّها ليس لها صلةٌ طبيعيَّةٌ بالدال)) (علم اللغة العام ٨٨)، فليس للمدلول أيَّة علاقة داخلية مع المتوالية الصوتية (الدال)، إذ يُمكننا التمثيل للفكرة بأيَّة متواليةٍ صوتيَّةٍ أخرى، ولعلَّ اختلاف لغات البشر خيرُ دليل على تأكيد مبدأ الاعتباطية (ينظر: المصدر نفسه ٨٧، ومدخل للسانيات سوسير ٤٣).

ولا تعني الاعتباطية أنَّ المرء حرٌّ في اختيار الدال، وربطه بمدلول معيَّن، وإنَّما تعني أنَّه لا توجد أيَّة علَّةٍ طبيعيَّةٍ أو منطقيَّةٍ تجعلنا نربط بين علامةٍ محددة، وموضوع محدد

(ينظر: السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ٢٩). ويشير ستيفن أولمان الى أنَّ الذين أكَّدوا مبدأ الاعتباطية يتفقون مع ما يقوله شكسبير على لسان جولييت: ((ماذا في اللفظ ؟ إنَّ ما نسميه وردةً يحتفظ برائحته الزكية فيما لو سميناه باسم آخر)) (المعنى وظلال المعنى ٤١).

ويستثني دي سوسير من مبدأ الاعتباطيَّة الكلمات المحاكية للطبيعة، أو ما يُعرَف في العربية بـ(أسماء الأصوات)، ويرى أنَّ هناك تشابهًا إلى حدٍّ ما بين الدال والمدلول في هذا النوع من العلامات، فالدال فيها يُحاكي المدلول (ينظر: علم اللغة العام ٨٨، ومدخل للسانيات سوسير ٤٤، والسيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ٢٩).غير أنَّه يشير إلى أنَّ هذا النوع من العلامات قليل، وهي ليست عناصرَ عضويَّةً في النسق اللساني((فضلاً عن أنَّ اختيارها يكون عادة بصورة اعتباطيَّة؛ لأنَّها محاولات تقريبيَّة تعتمد على العرف في محاكاة بعض الأصوات))(ينظر: علم اللغة العام ٨٨). أما الطبيعة الخطيَّة linear، وهي الصفة الثانية للعلامة اللغويَّة فإنها تتعلق بالدال فقط، أي بالصورة الصوتيَّة، دون المدلول، إذ((لمَّا كان الدالُّ شيئًا مسموعًا(يعتمد على السمع)فهو يظهر إلى الوجود في حيِّزٍ زمنيٍّ فقط، ويستمدُّ منه هاتين الصفتين(أ) إنَّه يمثل فترة زمنية و(ب) تُقاس هذه الفترة ببعد واحد فقط، فهو على هيئة خطٍّ)) (علم اللغة العام ٨٩، وينظر: النحو في القديم والحديث ٢٥)، فإذا ما قلنا في العربية مثلاً كلمة(رَجُل) فإنَّنا نلحظ أنَّ هذه الكلمة جاءت على شكل أصوات متوالية في الزمن، مبتدئةً بصوت الراء تتبعه فتحة، ثمَّ صوت الجيم الذي تتبعه ضمة، ثمَّ صوت اللام، ويجري ذلك كلُّه في تتابع زمني محدد (ينظر: النحو في القديم والحديث ٢٥، وأهم المدارس اللسانية ٣٦).

وعدَّ الكثير من الدارسين الأفكار التي بثّها دي سوسير في محاضراته بخصوص طبيعة العلامة واحدةً من المفاهيم المركزيَّة التي نقلتها الدراسات السيميائيَّة وحاولت توظيفها في أبحاثها، غير أنَّ بلومفيلد وبعد مراجعته لأفكار سوسير بخصوص طبيعة العلامة اللسانيَّة وجد أنَّ سوسير لم يأتِ بجديد، إذ إنَّ معظم هذه الأفكار كانت موجودةً ومتداولةً في الدرس اللسانيّ، وعليه لم يمنح سوسير فضل الأصالة أو نفاذ البصيرة في هذه المسألة، بل على العكس من ذلك نجده يؤكِّد أنَّ تفكير سوسير على الرغم من كونه على المسار الصحيح، لكنه لم يكن فكرًا لسانيًّا ناضجًا.

كذلك رفض بلومفيلد تصوُّر سوسير للغة بأنها نظامٌ من العلامات المعبِّرة عن أفكار، ورأى تأسيسًا على سلوكيَّته أنَّ اللغة ممارسةٌ ماديَّة، تقع بين مثير واستجابة بوصفها بديلًا لغويًّا عنهما، لأنَّ النظر إلى اللغة بوصفها وقائع ماديَّة يُتيح للباحث أن تكون موضوعًا للسانيَّاته، التي تؤمن بالماديّ المُدرَك، وكون اللغة معبِّرةً عن أفكار يجعلها مندرجة في إطار

الممارسة الذهنيَّة، وهو ما يرفضه بلومفيلد قطعًا (ينظر: مدارس اللسانيات التسابق والتطور ٦٤، والإنسان في الفلسفة اللسانيَّة٢٢٧).

إنَّ رفض دي سوسير النظر إلى الوقائع الماديَّة للممارسة اللغويَّة لكونها عصيَّة على الضبط العلميّ، وعرضة للتغيُّر والتبدُّل، بحسب الظروف، وهو الذي ينشد الثبات والاستقرار، في حين يرى بلومفيلد أنَّ الوقائع الماديَّة مُدركة ومحسوسة، ومن ثمَّ يُمكن فحصها لسانيًّا، من أجل ذلك رفض بلومفيلد ثنائيَّة سوسير الخاصة باللغة والكلام ورأى أنه لا حاجة إلى القول بها (ينظر: مدارس اللسانيات التسابق والتطور ٦٤.)، لأنَّ اللغة كانت موضوع لسانيَّات سوسير، وهي الأكثر ثباتًا واستقرارًا، لارتباطها بالمجتمع والكلام فرديٌّ، وهذا يجعل عمليَّة ضبطه معقدَّة.

لقد أجرى بلومفيلد تعديلًا على ثنائيَّة سوسير(الدال والمدلول)، مقدِّمًا توصيفًا رباعيًّا لها، ووجد أنَّ العلامة اللغويَّة تتكوَّن من أربعة أركان هي(الشيء الخارجي الحقيقي، والمفهوم(المدلول) والصورة الصوتيَّة(الدال) والقول الكلامي الفعليّ.واستبعد في مقاربته اللغويَّة كلًا من(المفهوم/المدلول) و(الصورة الصوتيَّة) وأبقى الشيء الحقيقي والقول الكلاميّ، لأنَّ بلومفيلد كما لاحظنا يؤمن بالملاحظ والمدرك والماديّ، والركنان اللذان استبعدهما هما ركنان ذهنيَّان، والمفارقة هنا((أنه قام بانقلاب على علامة سوسير من داخل فكرة العلامة ذاتها، مشيِّدًا ثنائيَّةً ماديَّةً...بديلًا عن ثنائيَّة العلامة الذهنيَّة، فالشيء الحقيقيّ مثيرٌ للاستجابة بقول كلاميٍّ، والقول الكلاميُّ مثيرٌ لاستجابة الشيء الحقيقيّ، وهما يقبلان الملاحظة والوصف ولا داعي لإدراج الذهنيّ بينهما، مما يخلُّ بموضوعيَّة الدراسة اللسانيَّة)) (الإنسان في الفلسفة اللسانية٢٢٧).

لقد ركَّز دي سوسير في دراسته اللغوية على عدد من الأفكار ذات الطابع الذهنيّ، إذ غالبًا ما يؤكد في محاضراته أنَّ كلَّ شيءٍ نفسيٌّ في اللسان، لكنَّنا نجد بلومفيلد لا يحتفظ لسوسير بالتقدير العالي لهذا الجانب، فتراه ينصُّ على أنه لم يكن عند سوسير من علم النفس شيءٌ، سوى الأفكار الشائعة البسيطة (ينظر: الأيديولوجيا واللغة ١٠٦).

ويُمكن القول إنَّ مراجعة بلومفيلد لنصِّ المحاضرات قد ركزت في نقدها على جهل سوسير –والكلام لبلومفيلد– بعلم الأصوات وعلم النفس، فهو يرى أنَّ سوسير يعتقد أنَّ علم النفس وعلم الأصوات لاتهمُّ إطلاقًا ولا علاقة لهما بدراسة اللغة، وكلام بلومفيلد هنا فيه نظر، لأنَّ دي سوسير أكَّد في محاضراته على الكثير من المفاهيم ذات الطابع النفسي في أثناء معالجته الدليل اللسانيّ، فقد رفض التصوُّر المتمثِّل بعدِّ اللغة((قائمة من الألفاظ، كلٌّ لفظة تدلُّ على الشيء الذي تسميه)) (علم اللغة العام ٨٤، وينظر: السيميائية – الأصول، القواعد، والتاريخ ٣٣، وسوسير والألسنية ٣٠)؛ لأنَّ الاشارة اللغوية عنده ذات طبيعة ***سايكولوجية***،

تربط بين فكرة وصورة صوتية، مثلما يرتبط وجه الورقة بقفاها (ينظر: علم اللغة العام ٨٤-٨٥، والبنيوية في اللسانيات ٢٠٣)، فقد ميَّز بين صوتٍ منطوقٍ وصورةٍ صوتيَّةٍ مُدركة، وتتجلَّى الخاصيَّة النفسيَّة للصورة الصوتيَّة في لغتنا الخاصَّة، إذ نستطيع التحدُّث مع ذواتنا، أو استظهار ما حفظناه في عقولنا من دون أنْ نحرِّك أعضاء النطق (ينظر: علم اللغة العام ٨٥، واللغة والخطاب ٤٥) ، إنَّ دي سوسير لا يعني بالصورة الصوتيَّة الجانب الفيزيولوجي للصوت، بل الصورة ***السايكولوجية*** للصوت، أي البصمة أو الانطباع الذي تتركه بالحواس (ينظر: علم اللغة العام ٨٥، واتجاهات الشعرية ٢٢).

ولمَّا كانت الكلمات الموجودة في لغتنا صورًا صوتية يحذِّر دي سوسير من استعمال مصطلح الفونيم phoneme ، الذي تتألَّف منه الكلمات؛ لأنَّ هذا المصطلح يُوحي بفعالية صوتية لا يصحُّ استعمالها إلاّ عند الحديث عن الكلمة المنطوق بها (ينظر: علم اللغة العام ٨٥).

ويمكن التعبير عن طبيعة الاشارة اللغوية بوصفها كيانًا سايكولوجيًّا له جانبان، هما الصورة الصوتية، والفكرة من خلال الرسم الآتي (ينظر: المصدر نفسه، الصحيفة نفسها، والبنيوية في اللسانيات ٢٠٢):

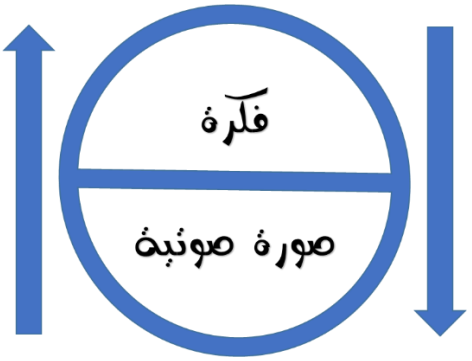

ولا يُتصوَّر الكيان اللسانيُّ-بحسب دي سوسير- إلاّ بترابط (الفكرة والصورة الصوتيَّة)، وإذا ما اقتصرنا على عنصر واحد من هذين العنصرين فإنَّ الكيان اللسانيَّ يصير منعدم الوجود، وفي هذه الحالة نكون أمام تجريدٍ صرفٍ لا أمام موضوع ملموس (ينظر: مدخل للسانيات سوسير ٧٣، والبنيوية في اللسانيات ٢٠٣).

ويعتقد دي سوسير أنَّه إزاء إشكاليَّة مصطلحيَّة مهمة في تعريفه الإشارة اللغويَّة، إذ يُطلَق مصطلح الإشارة على التأليف بين الفكرة والصورة الصوتية، على الرغم من أنَّ هذه اللفظة تدلُّ في الاستعمال الاعتياديّ على الصورة الصوتيَّة فقط، وللتخلُّص من هذا اللبس

اقترح دي سوسير ((الإبقاء على لفظة sign (الإشارة) للدلالة على الفكرة بأكملها، وأستخدمُ بدلًا من الفكرة concept والصورة الصوتية image – sound على التوالي المدلول signified (signifie) والدال signifier (significant)، ويمتاز التعبيران الأخيران بأنَّهما يوحيان بالفرق بينهما، كما يوحيان باختلافهما عن الكلِّ الذي هما جزء منه...)) (علم اللغة العام ٨٦، وينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة ١٥)، وقد أدَّى اعتماد دي سوسير على مصطلحات(الإشارة، الدال، المدلول)الى تخليص مفهوم الاشارة من خصوصيته اللغويَّة، الأمر الذي يؤهِّله الى أنْ يشمل جميع الأنظمة التواصلية التي يُعنى بها علم العلامات (ينظر: سوسير والألسنية ٣٦).

من جهة أخرى يؤكد روي هاريس أنَّ بلومفيلد أساء فهم سوسير بخصوص موقف الأخير من العلامة اللغوية، الذي يرى أنَّها تتكون من دالٍّ ومدلول، فهما طرفا العلامة اللغوية على وفق النظرة السوسيرية، لكن بلومفيلد يؤكد أنَّ كلَّ إشارة هي وحدة واحدة أو أكثر، وهذه الوحدات هي الأصوات في اللغة، ومعروف أنَّ سوسير يرى في اللغة منظومة من الإشارات التي تكتسب قيمتها من خلال النسق، ويشرح بلومفيلد كيفية عمل المنظومة السوسيرية بخصوص العلامة، اذ يقول:((ان الإشارة عند سوسير تشبه اللاحقة"s"في اللغة الانكليزية، لاتستخدم مفردة بل تضاف الى اشارات معينة لتعطي معنى)) (سوسير ومؤولوه ١٣٠)، وهو ما لم يصرح به سوسير، الذي حدَّ اللغةَ بكونها نظاما((يعتمد كليا على التقابل بين وحداته الملموسة)) (علم اللغة العام١٢٦)، وهذه الوحدات هي عبارةٌ عن عناصر يعتمد بعضها على بعض، ولمَّا كانت اللغة – بحسب دي سوسير – نظامًا من القيم، فإنَّ أيَّ عنصر من عناصر هذا النظام لا تتضح قيمته ولا تتبدَّى إلاّ من خلال وجود العناصر الأخرى في وقت واحد (ينظر: المصدر نفسه ١٣٤)، ذلك أنَّ عناصر النظام اللغويّ لا تمتلك قيمة بذاتها، وإنَّما تتأتَّى قيمتها من تعارضها وتخالفها مع العناصر الأخرى؛ إذ لا توجد في اللغة سوى الاختلافات (ينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة ٢٧ (رسالة ماجستير)، ومدخل للسانيات سوسير ٨٤، واتجاهات البحث اللساني ٢١٨)، فهي مؤسَّسةٌ على التعارضات (ينظر: اتجاهات البحث اللساني ٢١٨) ، يقول دي سوسير: ((أمَّا في اللغة فلا يوجد سوى الفروق أي العناصر السلبيَّة دون العناصر الإيجابيَّة، وسواء أخذنا المدلول أو الدال فإنَّ اللغة لا تملك أفكارًا ولا أصواتًا لها وجودٌ قبل النظام، والنظام اللغويُّ سلسلةٌ من الفروق الصوتيَّة ترتبط بسلسلة من الفروق في الأفكار)) (علم اللغة العام ١٣٩، وينظر: البنيوية في اللسانيات ٢٠٧–٢٠٨).

ولا يتجلَّى مفهوم القيمة عند دي سوسير إلاّ في إطار النسق، بوصفه ((مجموعة من العناصر المترابطة التي تشكل كلًّا واحدًا)) (اللسانيات والدلالة ١٥٩، وينظر: علم اللغة العام

٤١)، والنسق في النظريَّة السوسيريَّة معادلٌ للغة؛ لذا نجد دي سوسير يؤكِّد دائما أنَّ اللغةَ نسقٌ من الإشارات التي لا تعترف إلاّ بنظامها الخاصّ (ينظر: علم اللغة العام ٤١) ، ويتطلَّب النسق – كما نعلم – وجود عناصر ترتبط فيما بينها بنوعٍ معين من العلاقات.

ويُعطي دي سوسير الأولويَّة في البحث للنسق وصولاً إلى العناصر الأخرى، ولا يعطيها إلى العناصر وصولاً الى النسق، إذ((لا شيء يتميَّز قبل البنية اللغويَّة)) (دليل الناقد الأدبي ٦٩، وينظر: السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد ٣٦)، ولا شكَّ في أنَّ مثل هذا التأسيس((هو الذي يُخرج الدلالة من أُفق التعامل مع اللغة بوصفها كلمات، كلُّ كلمة معزولة بذاتها إلى أُفق التعامل مع اللغة بوصفها نسقًا به تترتب الكلمات لتقول ممكنها الدلالي، وفق تركيبها الخاص، صوتًا في كلمة، وكلماتٍ في جمل، وجملاً في نصٍّ)) (اللسانيات والدلالة ١٠٢). فلا يجوز – بحسب سوسير – أنْ يبدأ المرء بالعناصر اللغويَّة، ويبني منها النظام من طريق الجمع بين هذه العناصر، بل((ينبغي للمرء أنْ يبدأ من الكلِّ المترابط الأجزاء، ويتوصَّل الى عناصره عن طريق التحليل)) (علم اللغة العام ١٣٣، وينظر: اتجاهات البحث اللساني ١٩٤) ، وتأسيسًا على رأي دي سوسير هذا((لم تعد النظرة (العلميَّة) إلى الأشياء نظرة جزئية تصل الى معرفة الكلِّ من خلال الجزء وخصائصه، فلا الجزء هو نفسه مع الكلِّ، ولا الكلُّ هو مجرد مجموع أجزائه فقط، بل الأهم هو (العلاقة) التي تسود بين الأجزاء، وتحدِّد النظام الذي تتبعه الأجزاء في ترابطها، والقوانين التي تنجم عن هذه العلاقة، وتسهم في بنيتها في الوقت نفسه)) (دليل الناقد الأدبي ٦٨).

فدي سوسير على وفق ما تقدَّم يرى أنَّ الإشارة تعتمد في جلاء معناها على شبكة من العلاقات كاملة، فهي التي تميِّز كلَّ إشارة من جاراتها في المنظومة. لكن بلومفيلد أساء فهم دي سوسير في هذا الشأن، وقد أدَّى سوء فهمه هذا الى أنه أهمل الكلام على مفهوم القيمة الذي يمثل حجر الأساس في النظرية السوسيرية، والذي أكَّد سوسير بموجبه أهمية العلاقات بين الوحدات اللسانيَّة، التي تتضح في إطار النسق العام، وأنَّ العنصر اللغويَّ لا قيمة له إذا كان معزولًا عن العناصر اللغويَّة الأخرى، وهو مفهومٌ نقله دي سوسير من العلوم الاقتصاديَّة (ينظر: علم اللغة العام ٩٩، والنحو في القديم والحديث ٢٩)، وشكَّل علامةً بارزةً في نظريته اللسانيَّة، ولعلَّ في ذلك تفسيرًا لإلحاح دي سوسير المتكرِّر في محاضراته على أنَّ اللغةَ نظامٌ من القيم الخالصة (ينظر على سبيل التمثيل: علم اللغة العام ٩٩،١٣١).

ولكي تُفهم الفرضيات السوسيريَّة يجب علينا الانطلاق من مفهوم القيمة لا متابعة الترتيب الذي عليه فصول الكتاب؛ لذا قد يبدو من الأجدى للقارئ أنْ يبدأ قراءة المحاضرات من الوسط، وتحديدًا من الفصل الرابع من الجزء الثاني في الترجمة العراقية، وهو فصل "القيمة اللغويَّة"، ففي هذا الفصل يؤكِّد دي سوسير محوريَّة مفهوم القيمة في النظريَّة اللسانيَّة،

سواء بالنسبة إلى جانبها الإجرائيّ، وهو تعيين هُويَّة الوحدات اللغويَّة، أو جانبها النظريّ عند تحديد موضوع اللسانيَّات (ينظر: المنوال النحوي ٧٤).

كذلك كان التصوُّر الذي عرضه دي سوسير لعلم الأصوات محطَّ انتقاد واضح من لدن بلومفيلد، فقد رأى أنه تصورٌ مستخلصٌ ومستقى من اللغات: الفرنسيَّة والألمانيَّة السوسيريَّة، ولا يقدِّم نتائج ايجابية يمكن الاعتماد عليها عند تطبيقه على اللغة الإنكليزية (ينظر: الإيديولوجيا واللغة ١٠٦).

وبعد مرور أربع سنين نشر بلومفيلد مقالة بعنوان(في الأعمال اللغويَّة الحديثة في اللسانيَّات) (ينظر: سوسير ومؤولوه ١٣٢) قدَّم فيها مقارنةً لماهيَّة المعنى بين فهم سوسير من جهة وفهم أوجدن وريتشاردز من جهة أخرى، فمعروف أنَّ سوسير قدّم تصوره الخاص بالمعنى، القائم على أساس العلاقة بين الدال والمدلول، مستبعدًا في ضوء هذا التصوُّر المرجع الخارجيَّ، وقد واجه استبعاد دي سوسير المرجع من العمليَّة الدلاليَّة اعتراضًا شديدًا من لدن أوجدن وريتشاردز في كتابهما(معنى المعنى)، الصادر في لندن، العام ١٩٢٣، فهما يريان أنَّ نظريَّة العلامات عندما استبعدت الأشياء التي تشير إليها هذه الكلمات قطعت أواصرها بمناهج البحث العلميّ (ينظر: السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد ٢٣) ، واختصر اوجدن وريتشاردز العلاقة التي تربط بين الأشياء والأفكار والرموز في شكل مثلث معروف في الدراسات اللغوية، ضمَّنا فيه الشيء الخارجيَّ الذي تُشير إليه العلامة اللغويَّة، وهما بذلك يكونان قد ربطا العلامة بالواقع الخارجيّ. من أجل ذلك رفضا النموذج السوسيريَّ الثنائيَّ لصالح نموذج ثلاثيٍّ، يأخذ في حساباته الفكرة والرمز والشيء الخارجيّ، وقد أصبح هذا الثالوث واحدًا من المنارات المعروفة في تأريخ الدرس السيميولوجيّ في القرن العشرين.

ونجد هنا مفارقة بخصوص رأي بلومفيلد بخصوص الموقفين، فهو يمتدح فهم دي سوسير للمعنى، ويفضِّله على رأي أوجدن وريتشاردز، على الرغم من أنَّ مقاربة دي سوسير للمعنى كانت ذهنية كما تقدَّم، استبعد فيها المرجع الخارجي، وكان من الأجدى لبلومفيلد انطلاقًا من سلوكيَّته وأمبيريقيَّته أن يشيد بمثلث أوجدن وريتشاردز، لأنَّهما في الأقل قاما بربط العلامة بخصائص العالم الخارجيّ القابل للملاحظة، وهو ما ينسجم مع متبنيات بلومفيلد النظرية، زِدْ على ذلك أنَّ موقف بلومفيلد السلوكيّ يجعله قريبًا إلى حدٍّ ما من موقف التداوليين الذين أعطوا قيمة للكلام المستعمل في مقاربتهم اللغويَّة، لكنَّه مع ذلك أفرغ اللغة من القصد والتأثير، لصالح بقائها في فضاء السلوك الماديّ.

ومن المراجعات التي قدَّمها بلومفيلد للسانيَّات سوسير كلامه على طبيعة(الجملة)، التي استبعدها سوسير من بحوثه اللسانيَّة، لكونها ذات طبيعة متغيِّرةً لارتباطها بالكلام، في حين وجد فيها بلومفيلد أنَّها واقعةٌ تجريبيَّة تصلح للوصف اللسانيّ الذي كان يتغيَّاه لدراسة

لغات الهنود الحمر، لأنَّ المتكلِّم ينطق جملًا لا كلمات مبعثرة، وتأسيسًا على هذا التوجُّه وقف بلومفيلد على ثنائيَّة سوسير الخاصَّة بالعلاقات(العموديَّة والأفقيَّة)، لكي يحلِّل الجملة، فأبقى على العلاقات الأفقيَّة/السياقيَّة، ذات الجانب الحضوري الماديّ المرتبط بالإجراءات الشكليَّة، ورفض العلاقات العموديَّة/الإيحائيَّة، لأنها مرتبطة بفكرة التداعي والذهن، وهو ما يُمكن أن يكون سببًا في فتح باب التأويل الذي يرفضه بلومفيلد استنادًا لمرجعيَّتيه السلوكيَّة والمنطقيَّة (ينظر: الإنسان في الفلسفة اللسانية٢٣٣).

وفي منتصف عمره المهنيّ وتحديدًا في العام ١٩٣٣ صدر كتاب بلومفيلد(اللغة)، متزامنًا مع تحوله إلى السلوكيَّة، والغريب في هذا الكتاب أنَّه لم يرد ذكر لسوسير سوى مرة واحدة، لكونه–بحسب رأيه– عالمًا استوعب العلاقة الطبيعيَّة بين الدراسات الوصفية والتاريخية، ولم يذكر فيه أيَّ شيء عن الجوانب الأخرى لأعمال سوسير (ينظر: الأيديولوجيا واللغة ٩٧ وسوسير ومؤولوه ٩٧).

وهو موقفٌ غريبٌ عزاه روي هاريس إلى تحوُّل بلومفيلد المعرفيّ إلى طروحات عالم النفس فايس، ووجد أنَّ هذا التحوُّل كان بسبب قراءته لنصِّ المحاضرات، التي لم يرد لها ذكرٌ إلا مرةً واحدةً. نخلص من ذلك أنَّ سوسير مارس سلطةً معرفيَّةً على بلومفيلد، وكانت الكثير من آرائه التي تبنَّاها تعديلًا أو مراجعةً لأفكار سوسير، وهو ما اتَّضح لنا من خلال البحث (ينظر: الأيديولوجيا واللغة ١١٧).

ثبت المصادر

- اتجاهات البحث اللساني، ميلكا افيتش، ترجمه عن الانكليزية د.سعد عبد العزيز مصلوح ود.وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، د.ت.
- اتجاهات الشعرية الحديثة – الأصول والمقولات، يوسف اسكندر، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٤م.
- أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة في الدراسات العربية الحديثة، حيدر سعيد عباس ميرزا، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦م.
- الإنسان في الفلسفة اللسانيَّة، أنفال جاسم محمد، ط١، كنوز المعرفة، عمَّان، ٢٠٢٠م.
- الإيديولوجيا واللغة، تحرير جون إي جوزيف وتالبون جي تيلر، ترجمة وتعليق باقر جاسم محمد، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ٢٠٠٨م.
- البنيوية في اللسانيات، الحلقة الأولى، محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٨٠م.
- التفكير اللغوي بين القديم والجديد، د.كمال محمد بشر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- الثنائيات اللسانية، د.التهامي الراجي الهاشمي، طبع ونشر دار النشر المغربية، الرباط، د.ت.
- جومسكي، جون لاينز، ترجمة بيداء علي العلكاوي ونغم قحطان العزاوي، مراجعة د.سلمان داود الواسطي، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠١م.
- دليل الناقد الأدبي، د.ميجان الرويلي وسعد البازعي، ط٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.
- سوسير والألسنية، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية، مجموعة مؤلفين، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦م.
- سوسير ومؤولوه، روي هاريس، ترجمة أحمد الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١١م.
- السيميائية – الأصول، القواعد، والتاريخ مجموعة مؤلفين، ترجمة رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم عز الدين المناصرة، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٨م.
- السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد، تحرير د.نصر حامد أبو زيد وسيزا قاسم،
- علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز، مراجعة د.مالك يوسف المطلبي، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.
- اللسانيات والدلالة، د.منذر عياشي، ط٢، مركز الانماء الحضاري، ٢٠٠٧م.
- اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.

❖ مدارس اللسانيات، التسابق والتطوُّر، جفري سامسون، ترجمة محمد زياد كبة، الرياض، ١٩٩٤م.

❖ مدخل الى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، ط١، منشورات الاختلاف ولبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م.

❖ مدخل في اللسانيات، صالح الكشو، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨٥م.

❖ مدخل للسانيات سوسير، د.حنون مبارك، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.

❖ المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، د.محمد محمد يونس علي، ط٢، دار المدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٧.

❖ مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب د.محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.

❖ مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ترجمه وعلَّق عليه ومهَّد له أ.د.سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، مصر، ٢٠٠٤م.

❖ المنوال النحوي- قراءة لسانية جديدة، عز الدين مجدوب، ط١، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقس، ١٩٩٨م.

❖ موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ. روبنز، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٨هـ-١٩٨٧م.

❖ النحو في القديم والحديث، د.محمد محمود غالي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر، بيروت، القاهرة، ٢٠٠٤م.

Sources and References

- Trends in linguistic research, Milka Avicii , translated from English by Dr. Saad Abdel Aziz Maslouh and Dr. Wafaa Kamel Fayed, .Supreme Council of Culture, National Translation Project, n.d
- Origins and Categories, Youssef - Trends in Modern Poetry .٢٠٠٤Thaqafiyah, Baghdad, -Shu'un Al-st ed., Dar Al١Iskandar,
- The Impact of De Saussure's Lectures on Modern Arabic Studies, Haider Saeed Abbas Mirza, Master's Thesis, College of Arts, .١٩٩٦University of Baghdad,
- st ed., ١nguistic Philosophy, Anfal Jassim Muhammad, Man in Li .٢٠٢٠Treasures of Knowledge, Amman,
- Ideology and Language, edited by John E. Joseph and Talbon G. Taylor, translated and annotated by Baqir Jassim Muhammad, Dar ،st ed., Baghdad١Thaqafiyah, -Shu'un Al-Al2008.
- Hanash , Dar-Structuralism in Linguistics, Part One, Muhammad Al .AD ١٩٨٠Hadithah, Casablanca, -Rashad Al-Al
- Linguistic Thinking between Old and New, Dr. Kamal Muhammad .٢٠٠٥Bashar, Dar Gharib, Cairo,
- Hashemi, printed -Raji Al-Tahami Al-Linguistic binaries, Dr. Al .and published by the Moroccan Publishing House, Rabat, n.d
- Alkawi and -Chomsky , John Lyons , translated by Baida Ali Al -Azzawi, reviewed by Dr. Salman Dawood Al-Nagham Qahtan Al .٢٠٠١Thaqafiyah, Baghdad, -Shu'un Al-st ed., Dar Al١Wasiti,
- -Ruwaili and Saad Al-The Literary Critic's Guide, Dr. Megan Al .٢٠٠٥th ed., Arab Cultural Center, Casablanca, ٤Bazie ,
- Saussure and Linguistics, in the book The Most Important Linguistic Schools, a group of authors, publications of the National .١٩٨٦of Educational Sciences, Tunis, Institute
- -Saussure And its Authors , Roy Harris, translated by Ahmed Al .٢٠١١Kalabi, United New Book House, Beirut,
- Principles, Rules, and History, a group of authors, -Semiotics -troduced by Izz altranslated by Rashid bin Malik, reviewed and in st ed., Majdalawi Publishing and Distribution ١Manasra, -Din al .٢٠٠٨House, Amman,
- Semiotics : On Some Concepts and Dimensions, edited by Dr. Nasr ،Hamed Abu Zaid and Siza Qasim

- Dr. Yoel General Linguistics, Ferdinand de Saussure , translated by Muttalibi, Arab -Youssef Aziz, reviewed by Dr. Malik Youssef Al .١٩٨٥Horizons, Baghdad,
- nd ed., Center ٢Linguistics and Semantics, Dr. Munther Ayyashi, .٢٠٠٧for Civilizational Development,
- ca, Language and Discourse, Omar Okan , East Africa, Casablan .٢٠٠١
- Schools of Linguistics, Competition and Development, Jeffrey .١٩٩٤Sampson, translated by Muhammad Ziad Kabba, Riyadh,
- Introduction to Textual Science and its Application Areas, st ed., Ikhtilaf Publications ١Subaihi, -Akhdar Al-Muhammad Al .٢٠٠٨banon Publishers, Beirut, and Le
- Kasho , Arab House for -Introduction to Linguistics, Saleh Al .١٩٨٥Books, Tripoli,
- st ١Introduction to Saussure's Linguistics , Dr. Hanoun Mubarak, .١٩٨٧ed., Toubkal Publishing House, Casablanca,
- Meaning, Systems of Semantics in Arabic, Meaning and Shades of -Madar Al-nd ed., Dar Al٢Dr. Muhammad Muhammad Yunus Ali, .٢٠٠٧Islami, Beirut,
- Introduction to Semantics and Communication, Dr. Muhammad st ed., United New Book House, Beirut, ١Muhammad Yunus Ali, .٢٠٠٤
- Methods from Hermann Paul to Naum Chomsky , Linguistics Brigitte Bartsch , translated, commented on and introduced by Prof. Mukhtar Foundation, Egypt, -st ed., Al١Dr. Saeed Hassan Bahri, .٢٠٠٤
- A New Linguistic Reading, Ezzedine -Grammatical Model Hami for Publishing and -ar Muhammad Ali Alst ed., D١Majdoub, .١٩٩٨Distribution, Sfax,
- A Brief History of Linguistics (in the West), R.H. Robbins, translated by Ahmed Awad, World of Knowledge Series, National .AD ١٩٨٧-AH ١٤١٨Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait,
- rammar in the past and present, Dr. Muhammad Mahmoud Ghali, G st ed., Lebanon Publishers Library, and the Egyptian International ١ ،Publishing Company, Beirut, Cairo2004.